

رواية

إنسان
قبل كل شيء

رداد السلامي

الإهداء :

إلى الذين سألوا فآمنوا..
وإلى الذين خافوا فصاروا أحرارًا...

الفصل الأول

المقهى الذي يطل على العاصفة

لم يكن في ملامحه ما يُشبه صورة "القيادي" التي رسمها الإعلام في أذهان الناس.

لا لحية كثّة تستفزّ الهواجس، ولا نظرات حادّة توحى باليقين المتجبر. كان "تاريخ عبداللطيف" يمشي في الممرّ الترابي المؤدي إلى بوابة الجامعة كأيّ موظف بسيط تأخّر عن دوامه، يحمل حقيبة قديمة بجلد مهترئ عند الأطراف، ويداوم على عادة غريبة: يسلم على الحراس واحدًا واحدًا، ينطق أسماءهم، ويسأل عن أمهاتهم ومرض أطفالهم، كأنّه يحيي فيهم إنسانيتهم قبل وظائفهم.

جلس في المقهى المطلّ على ساحة الجامعة، ذاك الذي يشبه غرفة انتظار معلّقة بين ضحيج المدينة وروحها المرهقة.

المقهى ضيق، تلتصق طاولاته كأنّها تحاول الاحتماء ببعضها من تيارات الريح التي تتسلّل عبر النافذة المطلّة على البحر البعيد.

المالك شاب صامت، يضع التلفاز على قناة أخبار لا صوت لها؛ لأنّ الأصوات في هذا البلد أكثر من أن تُحتمل.

في الزاوية القريبة من النافذة، جلس "عبدالباري السالمي"، يراجع كودًا برمجيًا على شاشة حاسوبه المحمول، تتدلى من أذنه سماعة، ومن داخله تتدلى حياة كاملة لا يملك شجاعة مواجهتها.

كان عبدالباري . خريج قسم الحاسوب، بانتظار ردّ لوظيفة لم تأت، وابنًا
لناصريّ قديم ظلّ يتعامل مع السياسة كأنّها دين مكتمل لا يقبل
المراجعة . يعيش في منطقة قاتلة بين الإعجاب السري بكل من يفكر
بجدية، وبين الخوف العلني من أن يكتشف أبوه أنّ ابنه بدأ يشكّ في
الجاهزية الوراثية للأفكار.

رفع تاريخ كوب الشاي، لم يشرب، بل قلب الحرارة بين أصابعه واستدار
قليلاً ناحية عبدالباري الذي كان يفتح صفحة عن "الخوارزميات والذكاء
الاصطناعي". لمحّه للحظة، ثم أعاد نظره إلى الورق الذي أمامه. كانت
أمامه صفحات مبعثرة، عليها عناوين فرعية بخط مرتّب:

"الإنسان بين الوراثة والاختيار"، "تشويه الوعي"، "صناعة العدو"،
"الإيمان كسؤال لا كشعار".

قطع الصمت صوتٌ هادئ:

– تحبّ البرمجة لأنّها منطق؟ أم لأنّها محاولة لترتيب الفوضى؟

لم يرفع عبدالباري عينيه مباشرة.

ظنّ أن السؤال موجّه لغيره. حين تكررت الجملة بنبرة أخف، التفت،
فوجد الرجل الجالس في الطاولة المجاورة يبتسم كأنّه يفتح باباً لا صفقة.

قال عبدالباري:

– ربما الاثنان معاً.

– الاثنان معاً... إجابة ذكيّة، لكن ناقصة، قال تاريخ، ثم أشار إلى شاشة
اللابتوب:

– المنطق وحده لا يحلّ مشكلة الإنسان، والفوضى وحدها لا تفسّر لماذا
نبحث عن المعنى. البرمجة جميلة؛ لأنّها تشبه اعترافنا أنّ الكون ليس
عَبثاً، وأن لكل شيء قانوناً، حتى الأخطاء لها "مُعالج".

ابتسم عبدالباري دون أن يدري لماذا أعجبته الجملة. شيء في هذا الرجل العادي الملامح كان يستفز المنطقة النائمة في وعيه.

– تعرف في شيء اسمه “الوراثة الفكرية”؟ سأل تاريخ.

– تقصد أن يرث الإنسان موقفه السياسي أو الأخلاقي كما يرث لون عينيّه؟

– بالضبط، قال تاريخ.

– في هذا البلد، كثيرون لم يسألوا أنفسهم: لماذا أوّمن بما أوّمن به؟ لماذا أكره من أكرهه؟ لماذا أكرر جملة سمعتها في إذاعة حزبية أو قناة ممولة من سفارة؟

توقّف برهة، ثم أضاف:

– المشكلة ليست في أن يكون الأب ناصريًا أو إسلاميًا أو ماركسيًا... المشكلة أن يتحوّل ذلك إلى قيد على عقل الابن، بدل أن يكون مدخلًا لأسئلته.

تشدّد شيء خفيّ في ملامح عبدالباري حين سمع كلمة “ناصرى”. كأن أحدًا لمس الجدار الأكثر حساسية في حياته.

قال بحذر:

– أحيانًا... يحاول الابن أن يسأل، لكن ثمن السؤال يكون أكبر من قدرته على الدفع.

تأمّل تاريخ ملامحه، كمن قرأ للتوّ فصلاً كاملاً من سيرته:

– معنى هذا أنك بدأت تسأل بالفعل.

لم يجب، أغلق الحاسوب ببطء، كأنّه يعلن انتباهه الكامل.

في تلك اللحظة، دخل شاب قصير القامة، يحمل كاميرا صغيرة، وجلس في آخر المقهى، مقابل التلفاز بلا صوت. كان اسمه “نادر”. لا أحد هنا

يعرف أن القناة التي يعمل معها طلبت منه "توثيق أنشطة بعض الكوادر الإسلامية في الجامعة"، ولا أحد يدري أن المقهى نفسه كان هدفًا مفضلاً؛ لأن وجوهاً كثيرة تجتمع فيه خارج الضبط الأمني المباشر.

لم ينتبه نادر إلى أن الرجل الجالس قرب النافذة، ذي الحقيبة العتيقة، هو نفسه الاسم الذي ذكره رئيسه في الاجتماع الأخير:

– راقبوا هذا الرجل.. اسمه "تاريخ". لا نريده شهيداً، نريده ملتبساً. صوّروه في الظل، اجعلوه يبدو رجل تنظيم لا رجل فكر.

رفع نادر كاميرته خلسة، التقط مشهداً عابراً: تاريخ يحدث عبدالباري، وكوب الشاي بينهما.

"جيد"، فكر. "الصورة بريئة، لكنها ستبدو مثل لقاء تجنيد إذا أضفنا إليها تعليقاً مناسباً."

كان هذا جزءاً من اللعبة الكبرى التي لم يكن عبدالباري يرى منها شيئاً بعد.

عاد تاريخ إلى حديثه، كأنه يواصل من نقطة أقدم من معرفتهما.

– اسمع يا...؟

– عبدالباري.

– اسم جميل. "عبد" و"البار"؛ العدل، التوازن.

يا عبدالباري، الفكرة، أي فكرة، لا تملك شرفها لأنها هوجمت أو دُعمت، بل لأنها تجيب عن أسئلة الإنسان بأمانة.

كل قوة في العالم اليوم تحاول أن تصنع لك عدوك: تقول لك من تحب ومن تكره، من "إرهابي" ومن "مستنير"، من "رجعي" ومن "تحرري".

لكن قبل أن تصدّق، اسأل:

من أنا؟ من خلّقي؟ لماذا خلّقي؟ ما الغاية التي أعيش لأجلها؟ وما المصير الذي أُساق إليه؟

ثم مال إلى الأمام قليلاً، صوته يهبط:

– إذا لم تُجب عن هذه الأسئلة بنفسك، سيُجيب عنها عنك شخص في غرفة مظلمة، يكتب خطاباً لقناة، أو بياناً لسفارة، أو منشوراً لحزب.

شعر عبد الباري أن الكلمات لا تقال له فقط، بل تُسحب من داخله.

تذكر أباه وهو يردّد في كل نقاش:

“الوحدة، التحرر، القومية، التقدم... والإخوان سرطان، خرافة، رجعية، خطر على الدولة.”

لم يكن يجرؤ أن يسأله: من قال ذلك أولاً؟ بأي ميزان؟ وعلى أي سلوك حكمت؟ هل رأيتهم من الداخل أم رأيتهم من شاشة؟

قال بتردد:

– بس... الإخوان، يعني... صورتهم سيئة. العالم كله يتكلم أنهم خطر.

ضحك تاريخ، لا بسخرية، بل بسكينة:

– العالم يا عبد الباري؟!

أيّ عالم؟

العالم الذي دعم أعتى الدكتاتوريات ثم بكى على الحرية؟ العالم الذي يبيع السلاح لقاتلك ثم يقدّم لك دورة في حقوق الإنسان؟!

يا بني، ليس المطلوب أن تدافع عن “الإخوان” أو عن غيرهم. المطلوب أن تمتلك أنت ميزاناً. أن تسأل: من يحكم عليّ؟ من يصنع صورتي عن الآخر؟

ثم، وهذه أهم من كل شيء: ما علاقة هذا كله بالله؟

صمت لحظة ثم أكمل:

– أنا واحد من أبناء الحركة الإسلامية، نعم. لكنني قبل ذلك عبدٌ يسأل: كيف ألقى الله بفكرة لا تخون ضميري ولا عقلي؟ هذا هو السؤال الذي يخيف الجميع.

انعقد الحاجبان في وجه عبدالباري:

– أبي يقول إنكم تستغلون الدين لأهداف سياسية.!

– ربما يفعل بعضنا ذلك، قال تاريخ بهدوء،

– لكن دعنا نكون صريحين: كل تيار يملك من يستغل، ومن يخلص، من يكذب، ومن يصدق.

السؤال ليس: هل في الإسلاميين أخطاء؟ طبعًا فيهم.

السؤال: هل المشروع الذي ينطلق من الإيمان بالله والاعتراف بكرامة الإنسان والآخرة، أصلًا مشروع يمكن أن يُمنح فرصة عادلة ليفهم؟ أم أن تشويهه شرط من شروط بقاء منظومات أخرى؟

كانت الجملة الأخيرة كأنها قنبلة بطيئة الانفجار في صدر الشاب.

في البيت، كان الأب يعلّق صورة قديمة له مع رفاقه الناصريين. وجوه مرفوعة، هتاف صامت، أحلام كبيرة في إطار أصفر.

كان يقول دائمًا:

“نحن حرّنا الوعي من خرافة الدين السياسي. نحن فتحنا للناس باب الدولة الحديثة. الإسلام يبقى في المسجد، أما الدولة فللسياسة والعقل.”

لم يكن يدري أن ابنه سمع اليوم رجلًا يتحدث عن الله لا كخصم للعقل، بل كشرط لكرامة العقل.

في المقهى، انطفأت شاشة الأخبار لثوانٍ ثم عادت.

رياح خفيفة أزاحت ستارة النافذة، فدخل خط ضوء على وجه تاريخ وعبدالباري معًا، واستقرّ بينهما على الطاولة، كأنّه يرسم فاصلاً شفافاً بين عالمين.

قال تاريخ وهو ينظر إلى الضوء:

– شوف، حتى الشمس إذا مُنعت عنك من نافذة، تبحث عن فجوة أخرى.

الأسئلة الجادة كذلك؛ إذا حاولوا يخوّفونك منها، سترجع إليك من مكان أعمق.

ثم التفت إليه مباشرة، بصوت أقرب إلى الهمس الجاد:

– لا أطلب منك أن تتبعني.

أطلب منك فقط ألا ترث العداء ولا الولاء. أن تبحث.

إن وصلت إلى الله حقًا، ستعرف بعدها من يحبّك لله، ومن يريدك رقمًا في معركة ليست معركتك.

شعر عبدالباري بامتنان غريب لرجل لم يعرفه إلا منذ دقائق، لكنه لم يقل شيئًا.

مجرّد أن أحدًا عامله كعقل حر، لا كتابًا مستنسخًا من مكتبة الأب، كان ذلك بداية خيانة صغيرة لصنم الوراثة في داخله.

أخذ رقم هاتف تاريخ، على استحياء.

وحين خرج من المقهى، كان نادر من الخلف يلتقط صورة أخرى:

شاب يخرج، ورجل بسيط يبقى في الداخل، يطوي أوراقه.

في ملف التقرير، ستكتب تحتها لاحقًا جملة واحدة:

“المدعو (تاريخ عبداللطيف) يجري لقاءات استقطاب شبابية في مقهى قريب من الجامعة.”

أما في دفتر عبدالباري الداخلي، فقد كُتبت بداية أخرى تمامًا:

“اليوم... التقيتُ رجلًا سألني بصدق من أكون.”

الفصل الثاني

وراثة الأفكار.. البيت الذي لا تُفتح نوافذه

كان بيت عبدالباري يقع على طرف حيٍّ قديم في عدن، قريب من الميناء. منزل ذو طابقين، يختلط فيه رنين الموج برائحة الزيت والحديد. كل شيء فيه يوحي بذاكرة ثقيلة: صور القادة القوميين على الجدران، أشرطة كاسيت لأغاني مارسيل خليفة، وخزانة خشبية في الزاوية السفلى مكتظة بكتب غطاها الغبار وعليها عنوانٌ واحد يتكرر: الوحدة – الحرية – الاشتراكية.

في هذا البيت، لم يكن يسمح بفتح النوافذ كثيرًا؛ فالأب يرى أن الغبار يدخل مع الريح، والريح لا تأتي بالخير. وكان الغبار بالنسبة لعبدالباري رمزًا للفكرة التي لا تُهزّ، لا تُراجع، لا تُسائل، تمامًا كما هي أفكار أبيه.

كان عبدالله السالمي، والد عبدالباري، رجلاً صارم الملامح، تكسو وجهه ملامح الهزيمة الجميلة؛ تلك التي لا تزال تظن أن التاريخ مدين لها باعتذار!

شارك في مظاهرات عدن في الثمانينات، حلم بدولة عربية واحدة، وكتب ذات مرة في جريدة الحزب: "الدين لله والوطن للجميع."

منذها، لم يبدل قناعاته. فالأفكار عنده مثل العقيدة، تُتلى لا تُفكر، وتُسقى للابن كما يُسقى الطفل دواءً دون نقاش.

كان يُحب ابنه، لكنه كان يحب فكرته أكثر.

حين يعود من عمله كل مساء، يخلع سترته، يضعها بعناية على المشجب الخشبي، ثم يبدأ نشرات صغيرة من الخطابة:

– يا بني، العرب هُزموا حين سلّموا عقولهم لفقهاء الكهوف. نحن من أطلق فجر التحرر، نحن من كسر الإقطاع... لولا الناصرية، لكنت الآن تعيش في خرافة تُدعى "الحاكم بأمر الله".

ويصغي عبدالباري في صمتٍ مريض.

ليس لأنه مقتنع، بل لأنه يخاف.

فالخوف هو أول تربيةٍ يتلقاها في البيوت التي تُربّى على القناعة الواحدة.

وفي كل مرة يحاول أن يفتح فمه ليقول:

– بس يا أبي، يعني... الدين مش كخرافة، يمكن بس استخدم غلط...

يقاطعه الأب بصرامةٍ جاهزة:

– لا تكرر كلامهم! هؤلاء "الإخوان" يريدونك عبدًا لله ليحكموا هم باسم الله. نحن أردنا الإنسان سيدًا في وطنه.

كان الردّ دائمًا جاهزًا، كأنه محفوظ في درجٍ واحدٍ يُفتح لكل طارئٍ فكري.

في ليالٍ كثيرة، كان عبدالباري يسهر على سطح البيت، ينظر إلى المدينة، يسمع من بعيد نداء المؤذن من مسجد الحي.

لم يكن يعرف لماذا يحسّ بشيءٍ من الطمأنينة في ذلك النداء، رغم أن أباه يرى المؤذن امتدادًا "لخرافة الدين السياسي".

كان يهمس في نفسه:

– إذا كان هذا الصوت خرافة، فلماذا يهدّئني؟

ثم يضحك ساخرًا من ذاته:

– ربما لأن داخلي لم يلتحق بعد بالثورة.

ذات مساء، عاد الأب متجهّماً يحمل جريدة، ورماها على الطاولة.

كانت العناوين تتحدث عن اعتقال مجموعة من الشباب “الإخوانيين”
بتهمة التآمر على الدولة.

قال بصوتٍ غاضب:

– هؤلاء لا يتعلّمون!

ثم التفت نحو ابنه:

– أنت في الجامعة، ابتعد عنهم. لا أريد أن أراك يومًا في صورة مع أحدهم،
تفهم؟ هؤلاء سرطان الوعي العربي.

ردّ عبدالباري بهدوءٍ مصطنع:

– طيب يا أبي، لا تقلق.

لكن في داخله كان يشعر أن الكلمة الأخيرة “سرطان” كبيرة أكثر من أن
تُقال بسهولة.

تذكّر حديث “تاريخ” في المقهى حين قال له:

“كل قوة في العالم تصنع لك عدوك، وتمنحك صورة جاهزة عنه.”
هل يمكن أن يكون والده ضحية لتلك الصورة؟

في صباح اليوم التالي، وبينما كان الأب في عمله، جلس عبدالباري في
غرفته الصغيرة، أخرج من جيبه ورقة كتب عليها رقم هاتف “تاريخ”.

كان قد مرّ أسبوع على لقاءهما الأول.

تردّد قليلاً، ثم كتب رسالة قصيرة:

“السلام عليكم أستاذ تاريخ. أنا عبدالباري من المقهى. لو عندك وقت،
أودّ نكمل الحديث.”

لم تمضِ دقائق حتى جاء الردّ:

“وعليكم السلام يا عبدالباري. الحديث لا ينتهي، لكننا نستطيع أن نواصل ما بدأناه. غدًا بعد العصر، المقهى نفسه. وسأحضر معي شيئًا جميلًا، لا يُباع في المكتبات: فكرة صادقة.”

ابتسم عبدالباري رغم خوفه.

شعر أن الرسالة قصيرة لكنها تفتح في داخله نوافذ كان أبوه قد أغلقها منذ زمن.

في المساء، جلس الأب مع صديقه القديم “صالح الحالمي”، الذي جاء لزيارته.

كانا يتحدثان بصوتٍ عالٍ، كأنّ كلّ منهما يريد أن يُقنع الآخر بأن العالم ما زال يسمعهم.

قال صالح وهو يشعل سيجارته:

– سمعت إن ولدك بجامعة عدن متفوّق، ما شاء الله.

رد الأب بفخرٍ ممزوجٍ بالتحذير:

– أيوه، بس أحاول أقيه من أفكارهم الغريبة.

– منو؟

– الإسلاميين. الجماعة ذي يلبسوا الدين ويشغلوا سياسة.

ضحك صالح:

– الدنيا تغيرت يا عبدالله، الآن الناس كلها تلبس وتشتغل.

أجابه بجدية:

– لا يا صالح، في ناس تلبس الوعي ليستروا الجهل.

ضحك الاثنان، لكن عبدالباري الذي سمع الحديث من وراء الباب لم يضحك.

كان يشعر أن في هذه السخرية شيئًا من الخوف، وأن أباه يخشى من شيء أكبر من الإسلاميين: يخشى من فكرة جديدة في ابنه.

في اليوم التالي، عاد إلى المقهى.

كان تاريخ هناك، يجلس كعادته، يدون ملاحظات في دفتر صغير.

لم يكد يراه حتى ابتسم وقال:

– مرحبًا يا من بدأ يسأل.

جلس عبدالباري في هدوء، ووضع كوب الشاي أمامه.

قال تاريخ بعد لحظة صمت:

– سؤالك اليوم أهم من الأمس.

هل تستطيع أن تميّز بين أن تكون "ابن أبيك" وأن تكون "ابن فكرتك"؟
أجاب بتردد:

– مش دايماً، يعني... الفكرة تجي من التربية.

– صحيح، قال تاريخ،

لكن التربية الجيدة لا تزرع فيك الجواب، بل تزرع فيك القدرة على السؤال.

الذي يمنعك من السؤال لا يربّيكَ، بل يربّطك.

ثم أضاف وهو يبتسم:

– ابن أبيك في الاحترام، وابن فكرتك في الوعي. لا تخلط بينهما، فحتى الأنبياء وُلدوا في بيوت تخالفهم.

في زاوية المقهى، كان "نادر" من جديد، لكن هذه المرة لم يلتقط صورًا.
كان يستمع.

شيء ما في حديث الرجلين بدأ يربكه، كأنه يسمع للمرة الأولى جدلاً لا
يقوم على الشتائم.

تساءل في نفسه:

"هل يمكن أن يكونوا مختلفين عن الصورة التي رسموها لنا؟

هل يمكن أن يكون هذا الرجل... خطرًا فقط لأنه يفكر بصوتٍ مرتفع؟"

وفي آخر اللقاء، قال تاريخ لعبدالباري قبل أن ينهض:

– كل الأفكار الكبيرة تبدأ بخيانة صغيرة: أن تخون الخوف الذي ورثته.

ثم مدّ له ورقة كتب فيها جملة واحدة بخطّ جميل:

"اسأل لتؤمن، لا تؤمن لتكفّ عن السؤال."

خرج عبدالباري من المقهى وهو يشعر أن الهواء نفسه أصبح مختلفًا، كأن
النوافذ التي لم تُفتح في بيته بدأت تُفتح في داخله.

الفصل الثالث

العين التي تراقب النور

كانت المدينة في تلك الأيام تشبه وجهًا متعبًا يُخفي كدماته بمساحيق الدعاية.

الهدوء المصطنع الذي يخيم على الشوارع لم يكن سوى قناعٍ لرقابةٍ مستترة،

فمنذ أعلنت الحكومة قرار "ملاحقة خلايا الفكر المتطرف"،

صار كل نقاشٍ في مقهى، وكلّ حلقة حوارٍ في جامعة، يثير ريبة العيون الخفية.

أجهزة الدولة كانت ترى في "الكلمة" بذرة تمرد،

وفي "الوعي" مقدمة ثورة.

في ذلك الصباح، دخل "نادر" غرفة صغيرة في الطابق العلوي لمبنى القناة التي يعمل بها.

كان مدير التحرير، رجلًا أصلع يضع نظارة سميكة، ينتظره.

أمامه شاشة تعرض صورة واضحة: تاريخ وعبدالباري في المقهى.

قال المدير بصوتٍ حادّ:

– هذا هو، هذا اسمه تاريخ عبداللطيف. نريد تقريرًا كاملاً عنه.

من يلتقي، ما يكتب، من يموله.

المطلوب أن نُظهره كأداة "إخوانية" تحاول إعادة التنظيم في الجامعة.

هل فهمت؟

أوماً نادر برأسه دون حماس.

لكنه حين غادر الغرفة، أحسّ أنه يخرج من هواء ملوثٍ إلى هواء أكثر
تلوثاً.

كان في داخله شيء يتمرّد على الصورة الجاهزة.

قال في نفسه:

"الرجل الذي يجلس بهدوء ويحدث الناس عن معنى الخلق والمصير،

كيف يكون خطرًا؟

أيّ عقلٍ هذا الذي يخاف من الأسئلة؟"

في الجهة الأخرى من المدينة، كان "تاريخ" يلتقي صديقه القديم سليم
النجار...

في مكتبة صغيرة تقع خلف مسجد قديم.

المكان هادئ، يملؤه عبق الورق والذكريات.

كان سليم أكثر حذرًا، ذا نبرة عملية تنفر من التنظير الزائد.

وبينما كانا يحتسيان قهوة مرّة، قال سليم بصوتٍ منخفض:

– يا تاريخ، ما زلت تؤمن أن بإمكاننا كسب العقول بالكلمة؟

الناس اليوم لا تقرأ، والأنظمة لا تسمح،

والحركة نفسها تتآكل من الداخل.

ابتسم تاريخ، وكأنه كان ينتظر السؤال منذ زمن:

– يا سليم، حين تنغلق الأبواب كلها، تبدأ الدعوة من داخل الإنسان.

لسنا نحمل مشروع سلطة، نحمل مشروع صحوة ضمير، مشروع وعي
ويقظة، مشروع نهوض.

كل إنسان نوقظه، هو نواة مجتمع قادم.

الوعي يا صديقي لا يُمنع بالقرارات.

رد سليم وهو يشعل سيجارته:

– كلام جميل، لكنه مثالي.

المساجد تُغلق، الجمعيات تُراقب،

والناس تخاف حتى من السلام.

ألا ترى أن الأمر صار عبثًا؟

– العبث، قال تاريخ بهدوء،

هو أن نعيش دون أن نحاول أن نكون أوفياء لفكرتنا.

الحق لا يُقاس بمدى انتشاره، بل بقدر ما ينجو فينا.

هل تذكر قول علي عزت بيجوفيتش:

“المعركة الحقيقية ليست بين الشرق والغرب،

بل بين الإنسان واللاإنسان في داخل كل فرد.”

أطرق سليم رأسه قليلًا، ثم قال:

– لكنهم يصنعون منا أشباحًا، يلاحقوننا بتهمةٍ لا نستطيع الدفاع عنها.

ابتسم تاريخ من جديد:

- حين تخاف الدولة من كتاب،
فاعلم أن الحروف صارت أقوى من الرصاص.
في ذلك الوقت، كان عبدالباري يعيش ازدواجيةً قاسية.
في النهار، ابنٌ مطيعٌ لأبيه، يحضر معه ندوات القوميين في النادي الثقافي.
وفي المساء، تلميذٌ صغيرٌ على مائدة "تاريخ" في المقهى.
يتحدثان عن الإنسان ككائنٍ يبحث عن الله في خضمّ صراعات الأرض.
كان عبدالباري يشعر أن كل لقاءٍ يخلف فيه أثرًا عميقًا،
كأن روحه تتقشّر من أفكارٍ عالقة منذ الطفولة.
وفي إحدى الليالي،
بعد حوارٍ طويلٍ عن معنى الموت والحرية،
قال تاريخ له:
- يا عبدالباري،
الحرية ليست أن تقول ما تشاء،
بل أن تفكر كما تشاء،
دون أن يختطف خوفك قرارك.
- والخوف؟ -سأل الشاب-
- الخوف نعمة إذا دلك على حدودك،
ونقمة إذا منعك من أن تراها.
الأنبياء خافوا، لكنهم لم يتراجعوا.

كانت تلك الجملة آخر ما سمعه في تلك الليلة،
لكنه ظلّ يسمع صداها حتى الفجر.
وفي صباحٍ غائم، دقّ جرس باب بيت السالمي بقوة.
فتح الأب، فوجد رجلين بملابس مدنية يبرز أحدهما بطاقةً رسمية:
- الأمن العام.

نريد أن نسأل ابنك عن بعض الأمور.
إنه مجرد تحقيقٍ بسيط.
تجمّد الأب في مكانه.
لم يفهم.

قال بارتباك:

- ابني؟! عبدالباري؟!

ماذا فعل؟

- فقط أسئلة، لا تقلق، سيعود خلال ساعات.
دخل أحدهم الغرفة، أخذ حاسوبه المحمول،
ثم خرجوا ومعهم عبدالباري الذي لم يبدِ مقاومة.
كان في عينيه ذهول الطفل الذي يُنتزع من حلمه الأول.
في مركز الأمن، جلس محققٌ ثلاثينيٍّ أمامه،
يقلّب صورًا التقطها نادر في المقهى.
قال المحقق ببرودٍ مصطنع:

- تعرف هذا الرجل؟

- أيوه، هذا أستاذ...

- أستاذ؟!!

- أستاذ فكر... اسمه تاريخ عبداللطيف.

- وماذا تعلّمك بالضبط؟

- تعلّمني أن أفكر.

ضحك المحقق ساخرًا:

- جميل، فكر الآن:

كيف ستثبت أنه لا يجنّدك لتنظيم محظور؟

تردد عبدالباري، لكنه قال بصوتٍ خافتٍ ثابت:

- لو كان يريد تجنيدي، ما كان علّمني أن أسأل.

في المساء، خرج بكفالة.

حين عاد إلى البيت، كان الأب ينتظره عند الباب،

وجهه شاحب، ويداه ترتجفان.

قال بصوتٍ يختلط فيه الغضب بالخوف:

- قلت لك ابتعد عنهم!

أهكذا تكافئني؟!!

تريد أن تدمّر حياتك؟

أن تصير إرهابيًا مثلهم؟

لم يجب عبد الباري.

دخل غرفته بصمتٍ،

جلس على سريره، وكتب رسالة قصيرة لتاريخ:

“أستاذي، أخذوني اليوم للتحقيق بسبب لقائنا.
لكنني خرجت أكثر يقينًا أن ما تفعله ليس عبثًا.
لو كان في كلامك شرٌّ، لما خافوا منه.
أريد أن أراك غدًا إن استطعت.”

في المقهى اليوم التالي،

لم يأت تاريخ.

جلس عبد الباري وحده ينتظر حتى أغلقت الأنوار.

ثم خرج والبحر من بعيد يعلو موجه كصوتٍ غامضٍ ينذر بشيءٍ قادم.

في مكانٍ آخر،

كانت سيارة مظلة النوافذ تتوقف عند أحد الأزقة.

ينزل منها رجلان، يدخلان بيتًا صغيرًا في أطراف المدينة.

وفي داخله،

كان تاريخ يدوّن في دفتره آخر ما كتب:

“إذا ضاق الزمان بالأحرار،
فلتكن الفكرة سجنهم، والوعي حريتهم.”

ثم أطفأ المصباح.

الفصل الرابع

الذين لا يملكون إلا الفكرة

في صباح رماديّ من شتاءٍ عدنيّ متوتر،
انتشر خبر الاعتقال كما ينتشر الصمت في جنازة.
”تمّ القبض على أحد كوادر الفكر المتطرّف بتهمة التحريض على
الدولة.“

كانت الجملة تتكرر في نشرات القنوات،
بنغمة واحدة وعبارة منسّقة،
كأن المذيعين جميعًا يقرأون من صفحةٍ واحدة كتبها الخوف.
كان الاسم: تاريخ عبداللطيف.

وصورته — التي التقطها نادر قبل أسابيع —
تظهره جالسًا في المقهى، يبتسم بهدوء،
وبجانبه عبدالباري في لقطةٍ خاطفة.
تحولّ المقهى الصغير إلى ذاكرةٍ منقوصة.
الطاولات تروي همسًا ما حدث،

وصاحب المقهى يتهامس مع الزبائن:

– أخذوه الفجر. قالوا معه كتب كثيرة.

واحد من الشباب قال إنهم وجدوا عنده أوراقًا عن “الضمير الإنساني”.

ضحك الآخر:

– حتى الضمير صار تهمة.

أما عبدالباري، فكان يعيش حالة غريبة بين الغضب والخوف،

بين الشك واليقين.

لم يكن يفهم كيف يتحوّل الهدوء إلى خطر،

وكيف يصبح الذي علّمه التفكير متهمًا بالتأثير.

في تلك الليلة،

دخل على أبيه بخطواتٍ حذرة.

كان الأب يشاهد الأخبار، وجهه مطمئنٌ على نحوٍ يوجع.

قال بحزمٍ بارد:

– رأيت؟ ألم أقل لك؟

هؤلاء يُظهرون التقوى ليخفوا وراءها التنظيمات.

أخيرًا انكشفوا.

الحمد لله أنك لم تغرق معهم.

لكن عبدالباري لم يجب.

كان ينظر إلى وجه أبيه لا كابنٍ ينصت لأبيه،

بل كإنسانٍ يرى كيف تتحول الأيديولوجيا إلى حجرٍ على القلب.
تمتم بصوتٍ خافت:

– يا أبي...

هل يمكن أن يكون كل المختلفين أشرارًا؟
هل يمكن أن يكون الله في صفٍّ واحد فقط؟
ارتفع صوت الأب بغضب:

– لا تتفلسف عليّ!

أنت صغير لتفهم هذا العالم.
دع من يعرفون السياسة يتحدثون.
غادر عبدالباري الغرفة بهدوءٍ،
لكنه كان يشعر أنه يغادر شيئًا أعمق من الغرفة:
يغادر جدار الوراثة.

في زنزانة ضيقة، لا تتجاوز ثلاثة أمتار في مترين،
جلس "تاريخ" على الأرض،

يكتب على قصاصةٍ صغيرة من كرتونٍ مقطوع:

"حين يُمنع الضوء من الدخول إلى الزنزانة،
يصبح الحرف مصباحًا."

كانت هذه عادته: أن يكتب كما يتنفس.

لم يكن يكتب لنشرٍ أو مجدٍ،

بل يكتب لأن الفكرة في داخله إن لم تخرج تموت ويختنق معها.

أدخل السجّان طعامه،

وسأله باستهزاء:

– ما الذي فعلته يا شيخ؟ أأنت من يحرض الناس على الله؟

ابتسم تاريخ وقال بهدوء:

– بل أذكّرهم أن الله ما زال هنا، حتى في السجون.

هزّ السجان كتفيه ومضى،

كأنه يخاف من نبرة الطمأنينة أكثر من الجواب نفسه.

في القناة التي يعمل فيها نادر،

جلس وحيداً أمام شاشة الحاسوب يعيد مشاهدة التسجيل القديم.

كان يشاهد المقطع الذي صوّره لتاريخ وعبدالباري في المقهى.

كان الصوت في التسجيل خافتاً،

لكنه حين رفعه قليلاً سمع بوضوح جملة تاريخ:

“ابحث عن الله، لا عن الجماعة.”

شعر نادر برجفةٍ تسري في جسده.

ضغط على زر الإيقاف،

ثم همس في نفسه:

– هذا ليس تجنيّداً... هذا إنقاذ.

أغلق الملف،

وفتح صفحةً جديدةً في الحاسوب،

كتب فيها عنوانًا:

“الرجل الذي خافوا من أسئلته.”

كان يدرك أن نشرها يعني نهاية عمله،

لكنه كتب،

لأن الصمت في تلك اللحظة كان خيانةً أخرى.

في الجامعة،

بدأ زملاء عبد الباري يتجنبونه.

تبدّل وجه الودّ إلى حذرٍ غامض.

في الممرات، يسمع الهمس:

– هذا تلميذ ذاك “الإخواني” المعتقل.

وكانت النظرات تكمل ما لا تجرؤ الألسن على قوله.

لكنه كان قد تغيّر.

كل خوفٍ قديم تحوّل إلى رغبةٍ في الفهم.

بدأ يقرأ كتبًا كان يخاف أن تلمس يده غلافها،

يبحث في “هروبي إلى الحرية”، و“ميلاد مجتمع”، و“الإسلام بين الشرق والغرب” “وهذا الدين” و“معالم في الطريق”.

كل صفحةٍ كانت تفتح له نافذة على معنى جديد للحياة، ونضج حقيقي بالإسلام.

في مساءٍ متأخر، جاءته رسالة غريبة من رقم مجهول:

“إذا أردت أن تعرف الحقيقة عن مصير أستاذك،

تعال غدًا إلى الميناء القديم، الساعة العاشرة.”
جلس أمام الهاتف طويلًا،
قلبه بين رغبةٍ في المواجهة وخوفٍ من المصيدة.
لكنه في النهاية قرر أن يذهب.
لأنه كان قد تعب من الدوران حول الأسئلة.
الليل في الميناء يشبه مشهدًا من حلمٍ مضطرب:
مصابيح باهتة، أصوات أمواجٍ وهدير سفنٍ مهجورة،
ورائحة ديزل تختلط برطوبة البحر.
وقف ينتظر،
حتى خرج من الظلام رجلٌ نحيل يحمل حقيبة صغيرة.
قال بهدوء:
– أنت عبد الباري؟
– نعم، من أنت؟
– صديق لتاريخ. اسمي سليم النجار.
تردّد عبد الباري، ثم سأله بصوتٍ خافت:
– كيف حاله؟ هل هو بخير؟
قال سليم:
– لا أعرف إن كان بخير،
لكن ما أعرفه أنه كتب إليّ من السجن.

قال إنك ستكمل ما بدأه.
فتح الحقيبة وأخرج منها دفترًا مهترئًا،
ناولها لعبدالباري وقال:
– هذه أوراقه الأخيرة قبل الاعتقال.
أمانة في عنقك.
تسلم الدفتر بيدين مرتعشتين.
كان الغلاف مكتوبًا عليه بخط متعجب:
“الإنسان حين يوقظ الله في داخله.”
في تلك اللحظة،
كانت سيارة أخرى تتوقف بعيدًا،
داخلها يجلس نادر،
ينظر إليهما من خلف الزجاج المعتم.
لكن هذه المرة،
لم يكن يحمل كاميراه،
بل يحمل ورقة صغيرة كتب فيها سطرًا واحدًا:
“أحيانًا، علينا أن نخون مهنتنا كي نصدق إنسانيتنا.”
ثم أشعل الورقة،
تركها تشتعل حتى النهاية،
ورمى الرماد في البحر.

وفي البيت،

جلس عبدالباري في غرفته يفتح دفتر أستاذه.

الصفحات مملوءة بخطٍ متعب،

بينها كلمات تشبه الأدعية الفكرية:

“يا من تبحث عن الله في التاريخ،

لا تنسَ أن الله يبحث عنك فيك.”

“قد يُسجن الجسد،

لكن الروح التي عرفت طريقها لا تعود إلى القفس.”

“أخطر ما يملكه الإنسان فكرة لا يمكن سجنها.”

أغلق الدفتر على صدره،

وأحسَّ أن قلبه صار أكبر من خوفه،

وأن الفكرة التي زرعها “تاريخ” بدأت تُثمر.

في الخارج، كان الأفق يشتعل بخيط ضوءٍ دافئ.

الفجر ينزف من وراء الجبال،

كأنَّ السماء تكتب أول جملة في فصلٍ جديد.

الفصل الخامس

حين تتكلم الفكرة

لم يعد عبد الباري كما كان.
منذ أن تسلّم دفتر "تاريخ" من يد سليم النجار، صار يعيش بين عالمين:
عالم يراه الناس فيه شابًا صامتًا يمشي إلى الجامعة،
وعالم آخر يضحّ في داخله بأسئلة لا تهدأ.
كانت أوراق الدفتر كأنها رسائل مكتوبة له وحده،
تنبض بحرارة من عاش الفكرة حدّ العذاب.
في كل صفحة جملة تهزّه،
كأنها وصيّة تُسلم من جيلٍ إلى جيل.
"حين تُسجن الفكرة، لا تمُت، بل تخرج في شكل إنسان جديد."
"إذا أردت أن ترى الله في زمنٍ ضبابي، فابحث عن الذين لا يساومون على
ضمائريهم."
قرأها مرارًا حتى حفظها،
ثم أغلق الدفتر وقال في نفسه:

– لن أسمح أن تبقى هذه الكلمات حبيسة الورق.

في الجامعة،

بدأ يُحدّث زملاءه حديثًا جديدًا،

هادئًا، غير صدامي، لكنه كالماء يتسلّل إلى التربة العطشى.

كان يقول لهم:

– مشكلتنا مش في الدين ولا في السياسة،

مشكلتنا إننا فقدنا البوصلة بين الإيمان والفكر.

بين أن نعبد الله، وأن نعرف لماذا نعبد.

كان الطلاب يصغون في صمتٍ غريب.

حتى الذين كانوا يسخرون منه من قبل،

صاروا يجلسون معه في استراحات الكلية،

يسألونه عن “تاريخ”، وعن تلك الفكرة التي تشبه ضوءًا لا يُرى لكنه يُحسّ.

في الوقت نفسه،

كان “نادر” يعيش مخاضه الخاص.

منذ أن أحرق الورقة في الميناء، لم يعد يذهب إلى القناة.

صار يمشي في الشوارع بلا وجهة،

يشعر أنه فقد عمله لكنه كسب ذاته.

وفي إحدى الليالي، جلس يكتب على مدونةٍ صغيرة أنشأها سرًا:

“مذكرات شاهدٍ لم يعد يريد أن يكذب.”

كتب فيها مقالة بعنوان:

“كيف نصنع الأعداء في غرف الأخبار؟”

كشف فيها كيف تُختلق القصص،

وكيف تُصنع الصور لتخيف الناس من بعضهم،

وكيف يُختزل الإنسان إلى “ملف” أو “خطر محتمل” لأنّه يفكر خارج النغمة الرسمية.

انتشرت المقالة كالنار في الهشيم.

الناس لم يعرفوا من هو كاتبها،

لكنهم أحسّوا أنها كتبت بضميرٍ يعرف الوجدع جيّدًا.

وفي مكاتب القناة،

اشتعلت الأضواء حتى الفجر بحثًا عن “الخائن”.

في الزنزانة، كان “تاريخ” يسمع أحيانًا ضجيج السجناء يتحدثون عن مقالةٍ مجهولة كأنها عاصفة.

قال أحدهم:

– سمعت بها يا شيخ؟ مقالة بعنوان “مذكرات شاهد”؟

بيقول الكاتب إن الإعلام بيكذب علينا.

ضحك تاريخ وقال بهدوءٍ:

– يبدو أن الفكرة بدأت تتكلم.

ثم رفع رأسه نحو نافذةٍ صغيرةٍ في أعلى الجدار،

كان ضوء الصباح يدخل منها كشعاعٍ هشّ،

وقال لنفسه:

– لا بأس، ليخرجوا أناسي آخرين من رحم هذا السجن،

فالكلمة حين تُؤمن بنفسها لا تموت.

وفي بيت عبدالباري،

كان الأب يزداد قلقًا من تغير ابنه.

يراه أكثر صمتًا، وأكثر عمقًا في النظر.

ذات ليلة، طرق باب غرفته وقال بلهجة بين الأبوة والحذر:

– يا بني، أنا لا أكره الدين،

لكني أخاف عليك من أن يتحوّل إلى سجنٍ جديد باسم الحرية.

نحن جيلٌ خُدع بالشعارات،

وخفت أن تُخدع أنت بالشعور.

رفع عبدالباري عينيه وقال بهدوءٍ ناضج:

– وأنا يا أبي أخاف عليك من أن تموت داخل جدار فكرتك القديمة.

أن تبقى تحرس ماضيك كأنه وطن،

ولا ترى أن الله أكبر من كل الأوطان والأحزاب.

سكت الأب،

كانت المرة الأولى التي يشعر أن ابنه يتحدث إليه لا منه.

خرج دون كلمة،

وفي عينيه ظلّ غبشٍ بين فخرٍ خفيٍّ وخوفٍ لا يريد الاعتراف به.

في الجامعة، كان الجو يتوتر.

إدارة الكلية تلقت أوامر "من فوق" بمراقبة التجمعات الفكرية، وخاصة ذلك الطالب الذي بدأ يتحدث عن "الإيمان والحرية". دخل عليه أحد الأساتذة في أحد الأيام وقال بتحذير ناعم:

– عبد الباري، نصيحة، خفف من الكلام هذا.

ما عاد الزمن يحتمل الصادقين.

ابتسم وقال:

– وهل كذب الصادقون إلا لأن الزمن صار يخافهم؟

في مساء من أمسيات رمضان،

جلس عبد الباري على سطح البيت يقرأ آخر صفحات الدفتر.

كان فيها نصّ مكتوب بخطّ متعبٍ ومائل:

"إذا رأيتَ جيلاً لا يخاف إلا من الله،
فاعلم أن الأفكار عادت إلى الحياة."

ثم توقيع صغير: تاريخ عبداللطيف – سجن الساحل، رمضان.

أغلق الدفتر ببطءٍ،

وأحسّ أن قلبه يضيق بالسكوت.

قام وكتب بياناً قصيراً نشره على صفحته بعنوان:

"الإيمان ليس تهمة."

كتب فيه:

“تعلمت من رجلٍ مسجونٍ أن الحرية تبدأ حين نرفض أن نكذب على أنفسنا.

الدين ليس سلاحًا،

ولا الفكر ترفًا،

والإخوان الذين يخافون الله ليسوا شياطين.

الشیطان الحقيقي هو من يخاف من الفكرة.”

انتشر المنشور بسرعة،

وصار اسمه على كل لسان،

وانقسم الناس بين من يراه ملهمًا ومن يراه متهورًا.

لكن عبدالباري لم يكن يهتم،

كان يشعر للمرة الأولى أنه حيّ.

أما “نادر”، فقد قرأ المنشور في هاتفه وابتسم.

ثم كتب رسالة قصيرة من حسابٍ مجهول:

“الذين يكتبون بالصدق لا يحتاجون قنوات.

استمر، فالعالم لا يتغير إلا حين يخون الإعلام صمته.”

أرسلها إلى عبدالباري،

ثم أغلق هاتفه ومشى في ظلام المدينة،

قلبه ممتلئٌ بشعورٍ غامضٍ من الطمأنينة،

كأنه خرج أخيرًا من شاشةٍ إلى الحياة.

وفي السجن،

دخل الحارس على “تاريخ” وقال:

– عندك زيارة اليوم.

رفع رأسه بابتسامةٍ باهتةٍ وسأل:

– من الزائر؟

– لا أعرف، شاب قال إنه تلميذك.

وقف “تاريخ” قرب الباب الحديدي،

وبينهما زجاجٌ سميكٌ ينعكس عليه الضوء،

ورأى وجه عبدالباري يبتسم من خلف الزجاج.

لم يتكلما كثيرًا،

كانت النظرة وحدها تقول كل شيء.

ثم قال تاريخ بصوتٍ خافتٍ يختنق بالعبرات:

– قلت لك يا عبدالباري:

الأسئلة الجادة لا تموت.

ها أنا أراها تمشي على قدمين.

ابتسم عبدالباري وقال:

– وسأمشي بها حتى تصل إلى الناس جميعًا.

عندما خرج من السجن بعد شهرين،

كان تاريخ نحيلًا لكنه أكثر إشراقًا.

لم يكن يحمل شيئًا معه سوى دفترٍ جديد،

وفي صفحته الأولى كتب:

“الذين لا يملكون إلا الفكرة،

يملكون ما لا يُشترى.”

الفصل السادس

أبناء الفكرة

حين خرج "تاريخ" من السجن، لم يكن في المدينة شيء تغير كثيرًا.
الشوارع ذاتها، المقاهي ذاتها، الضجيج ذاته.

لكن الناس الذين كانوا يشيخون بوجوههم عنه في الماضي، صاروا الآن
يرمقونه بنظراتٍ مترددة بين الاحترام والخوف، كأنهم يرون فيه ما لم
يعودوا يجرؤون على أن يكونوه.

أما هو، فكان يحمل في وجهه سكينه غامضة لا تشبه المنتصرين ولا
المنهزمين،

سكون رجلٍ مرّ في النار وخرج منها دون رماد.

قال لسليم النجار وهو يسيران قرب البحر:

– لم يعد في غضب يا سليم، الغضب وقود العاجزين.

لقد فهمت شيئًا هناك، في الجدران الصماء:

أن أقوى سلاح ضد القهر هو أن تظل إنسانًا.

سليم كان ينظر إليه بإعجابٍ ودهشة:

– حتى بعد السجن ما زلت تتحدث عن الإنسان؟

– بل أكثر من قبل، يا صديقي، فالسجن وحده يُريك كم نحن نحتاج إلى إنسانيتنا لنظل أحياء.

الذين عذبوني لم يكونوا أعداءً لي، بل أعداءً لأنفسهم؛ لأنهم فقدوا المعنى.

في الجامعة، تحوّل عبدالباري إلى صوتٍ هاديٍّ يخترق الضجيج.

لم يعد يرفع الشعارات، بل صار يزرع المعاني.

أنشأ ندوة فكرية بعنوان “الوعي والحرية”،

وكان يجلس أمام الطلاب، لا كواعظٍ ولا كمحاضرٍ متعالٍ،

بل كأخٍ يسألهم:

– من منكم سأل نفسه اليوم: لماذا خُلق؟

من منكم حاول أن يرى العالم خارج قوالب السياسة والإعلام؟

من منكم ما زال يؤمن أن الإنسان يمكن أن يكون نبيلًا حتى في الظلمة؟

كان صوته ناعمًا لكنه نافذ،

وحين يتحدث عن “تاريخ”، يصفه بـ “الذي علّمني أن أرى الله في السؤال.”

صار بعض الطلاب يزورونه في بيته ليسألوه عن الدين، عن الحرية، عن معنى أن تكون مسلمًا في زمنٍ بلا رحمة.

وفي مكانٍ آخر من المدينة، كان نادر يعيش مطارّدًا بلا عنوان.

استقال رسميًا من القناة، وصدرت أوامر “بملاحقته بتهمة تسريب وثائق.”

اختبأ فترة في قريةٍ صغيرةٍ شمال تعز،

وكان يعيش من تدريس الأطفال القراءة والكتابة،

لكنه في الليل يكتب مقالاته الجديدة على هاتفٍ قديمٍ متّصلٍ بشبكةٍ ضعيفة.

كتب سلسلةً بعنوان:

“رسائل من إعلاميٍّ تائب.”

كشف فيها كيف كانت القنوات تتلقّى تمويلاتها لتشويه كل ما هو “إسلامي”،

وكيف كانوا يقطعون المقاطع الصوتية ليدّوا المتحدث متطرفاً،

وكيف تُدار صناعة الكراهية في غرفٍ مغلقةٍ مكيفة.

كانت مقالاته توقظ الضمائر النائمة،

حتى بدأ الناس يتداولونها في الجامعات ومجالس النقاش،

ولم يكن أحد يعرف أنه هو كاتبها.

لكن “تاريخ” عرف، حين قرأ أحد المقالات وقال مبتسمًا:

– لقد تاب إعلاميٌّ، إذا الفكرة بلغت مداها.

وذات مساءً، دعا عبدالباري أستاذه “تاريخ” إلى الجامعة.

قال له:

– نريدك أن تتحدث للطلاب، لا عن الحركة الإسلامية، بل عن الإنسان.

ضحك تاريخ وقال:

– وهل هناك فرق؟ الحركة حين تفقد إنسانها تفقد كل شيء.
في اليوم المحدد، حضر العشرات، وكانت القاعة تضحّ بترقبٍ غريب.

وقف “تاريخ” أمامهم بوجهٍ بسيطٍ وثقةٍ هادئة، وقال:

“يا أبنائي،

ليست مشكلتنا أننا مسلمون أو غير مسلمون،
بل أننا نسينا لماذا نكون أئياً منهما.
الإيمان ليس بطاقة انتماء،
بل رحلة بحثٍ شاقةٍ نحو الله.
والسياسة ليست طريقاً إلى السلطة،
بل امتحانٌ للأخلاق تحت الضغط.
من لم يحمل في داخله حرية الضمير،
سيصبح عبداً لأيّ شعارٍ يُرفع أمامه.”

كانت الكلمات كأنها تسقط على القلوب لا على الأذان،
ورأى عبدالباري بعض زملائه الذين طالما سخرُوا منه،
يبكون بصمت.

في المساء، بعد انتهاء المحاضرة،

جلس تاريخ وعبدالباري على مقعدٍ حجريٍّ في ساحة الجامعة،
يستمعان إلى خرير النافورة الصغيرة.

قال تاريخ مبتسماً:

– ها أنت بدأت من حيث انتهيتُ أنا.

الفكرة الآن ليست ملكي، صارت تسير على قدميك.

أجابه عبدالباري:

– بل أنت ما زلت فيها، هي أنت في شكلٍ آخر.
ضحك الاثنان.

ثم قال تاريخ:

– تذكر يا بني، أن الأفكار لا تنتصر بالخطابة، بل بالصدق.
احذر أن تتحوّل الفكرة إلى شعارٍ جديدٍ يعبدك الناس بسببه.
كن أنت الطريق، لا اللافتة.

وفي تلك الليلة،

بينما كان نادر في مكانه البعيد يكتب مقاله الأخير بعنوان
“الذين أعادوا الإنسان إلى الكلمة”،

وصلته رسالة قصيرة من رقمٍ مجهولٍ تقول:

“كلماتك وصلت إلى من في السجن،
فأيقن أن الكتابة ما زالت تخلق أحرارًا.”

ابتسم، وكتب في نهاية مقاله:

“ليست الحرية أن تُفتح الأبواب،
بل أن لا تعود نفسك تخاف منها.”

ثم أرسلها،

وهو يعلم أن اسمه سيُكشف قريبًا،

لكنه لم يهتم،

فالفكرة التي كانت في صدورهم صارت الآن في صدور الناس.

بعد عام، كانت اليمن كلها تمرّ بمرحلةٍ جديدةٍ من الصراع والبحث.
القوى السياسية تتهاوى،

والناس يبحثون عن صوتٍ صادقٍ يعيد إليهم معنى النبل وسط الخراب.
وفي إحدى أمسيات رمضان،

جلس "تاريخ" في المقهى ذاته الذي بدأت منه الحكاية،
يحمل صحيفةً صغيرةً على صفحتها الأولى عنوانٌ كبير:
"حركة إنسانية جديدة... شبابٌ يدعون إلى الإصلاح القيمي قبل
السياسي."

قرأ الخبر وابتسم.

ثم رفع عينيه نحو السماء وقال:

– الحمد لله، لم أزرع عبثاً.

ثم همس كأنه يخاطب نفسه:

– من يزرع في الوعي، لا يخاف من الريح.

اقترب منه عبدالباري يحمل دفترًا جديدًا،

وقال وهو يضعه على الطاولة:

– هذا كتابنا يا أستاذ، جمعنا فيه حواراتك وأفكارك،

سميناه "إنسان قبل كل شيء."

نظر تاريخ إلى العنوان طويلاً،

كأنه يرى فيه ختام الرحلة وبدايتها معاً.

قال بصوتٍ خافتٍ:

– جميل، ولكن لا تنسَ أن تكتب في الإهداء:

“إلى الذين سألوا فأمنوا،
وإلى الذين خافوا فصاروا أحرارًا.”

وفي نهاية الرواية،

كانت أصوات الأذان ترتفع من بعيد،

تختلط بأصوات البحر،

ورجلٌ بسيطٌ يجلس في مقهى صغيرٍ يتسم بهدوءٍ،

بينما شابٌ يكتب على شاشة حاسوبه:

“كان اسمه تاريخ،

لكنه علّمني أن الإنسان وحده هو التاريخ.”

الخاتمة

"تاريخ الإنسان حين يستيقظ..."

لم تكن الحكاية عن رجلٍ يُدعى "تاريخ"،
بل عن الإنسان حين يتذكّر أن له روحًا خلقت لتفكّر وتختار وتحبّ.
في وطنٍ تمزّق بين شعاراتٍ متقابلة،
وحركاتٍ تتصارع على بقايا الحقيقة،
كان لا بدّ أن يولد أحدٌ ليذكّرهم أن الله لا يُختزل في حزب،
ولا الحرية في نشيد،
ولا الوطن في جغرافيا الخوف.
ذلك الذي خرج من السجن لم يكن فردًا،
كان ضميرًا يجزّ خلفه جيلًا كاملاً أفاق من غيبوبةٍ طويلة.
أما عبدالباري،
فقد صار رمزًا للرحلة التي يخوضها كلٌّ من يجرؤ على سؤالٍ واحدٍ صادق:
"من أنا؟ ولماذا خلقت؟"

وحين سُئل بعد سنواتٍ عن أستاذه، قال:

– لم أتعلم منه فكرًا سياسيًا، بل طريقًا إلى الله عبر الوعي.

علّمني أن الدين لا يبدأ في المسجد، بل في الضمير.

وأن الإنسان إذا لم يعرف ربه لن يعرف وطنه.

لقد مرّت الأعوام،

وانتشرت الفكرة مثل نهرٍ هاديٍّ يشقّ طريقه في الصخر.

لم تُطلق شعاراتٍ، ولم تطلب السلطة،

بل اكتفت أن توقظ في الناس “حاسة النبل”.

وصار بعضهم يقول:

“جيل تاريخ”،

لا يقصدون التنظيم ولا الحزب،

بل يقصدون أولئك الذين رفضوا الكذب على عقولهم.

أما نادر، فقد اختفى اسمه،

لكن مقالاته بقيت تتناقلها الأجيال كوثائقٍ ضدّ الزيف.

كلما قرأ أحدهم عبارةً له،

يتذكّر أن الحقيقة لا تموت بالرقابة،

بل تولد من رحمها أقوى.

وفي مقهى صغيرٍ على البحر،

يجلس “تاريخ” في شيخوخته،

وجهه تغشاه ملامح الطمأنينة التي لا يصنعها النصر ولا الهزيمة.

يُقلّب دفترًا عليه آثار الزمن،

ويبتسم حين يرى أول جملة كتبها يوم خرج من السجن:

“الذين لا يملكون إلا الفكرة،
يملكون ما لا يُشترى ولا يُسلب.”

ثم يرفع رأسه نحو الأفق،

السماء تميل إلى الغروب،

والشمس تصبغ البحر بلون الذهب المطفأ،

وكأن النهار نفسه يسجد مودّعًا.

يتمتم بصوتٍ خافتٍ:

– لم أخسر شيئًا يا رب،

لقد منحني الكلمة التي لا تموت.

وجعلتني أرى في كل إنسانٍ إمكانية البدء من جديد.

وفي الصفحة الأخيرة من كتاب “إنسان قبل كل شيء”،

الذي نشره تلاميذه بعد رحيله،

كُتب بخطّ مائلٍ يشبه صوته:

“سيظلّ الإنسان أكبر من كلّ تصنيف،

والفكرة الحيّة أكبر من كلّ تهمة،

والحرية ليست أن نكسر السلاسل،

بل أن نكسر الصمت.

إن أخطر ما في الإيمان أنه يُعيد إلينا إنسانيتنا،

وإن أخطر ما في السياسة أن تنسينا تلك الإنسانية.”

وهكذا:

تظلّ حكاية "تاريخ" وعبدالباري ونادر ليست رواية عن جماعةٍ ولا عن صراعٍ سياسي بل عن ميلادٍ وعيٍ جديدٍ في أمةٍ أرهقها النسيان.

حكاية عن أولئك الذين آمنوا أن الله لا يختبئ خلف المآذن بل يسكن في ضمير الإنسان حين يصدق،

وفي الفكرة التي لا تخاف أن تُقال.

وفي سطرها الأخير كتبت العبارة التي تلخص كلّ الرحلة:

"كلّ من يوقظ شعوره بالله في قلبه،
يصبح تاريخًا لا يُمحى."

